سبيل الملك عبدالعزيز بالمعابدة في مكة المكرمة

المؤرخ عام ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م - دراسة معمارية أثرية

أ.د. ناصر بن علي الحارثي
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة أم القرى

السبيل وأهميته:

السبيل الطريق، يذكر، ويؤنث، وهو أكثر، وسبَّل ضيعته جعلها في سبيل الله، وسبَّلت الشيء إذا أبحته، كأنك جعلت إليه طريقاً مطروقة(١) .

والسبيل منشأة مائية بنيت لتزويد عابري السبيل بالمياه الصالحة للشرب، وقد عرفتها الأمم قبل الإسلام، ثم نالت عناية كبيرة عند المسلمين، وبخاصة في الأقاليم العربية التي تشح فيها المياه(٢) .

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن جلال الدين، لسان العرب، ١١/٣١٩-٣٢٣ (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي ودار إحياء التراث العربي، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ، ص ص ٣١٩، ٣٢٣، والجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار، ٣/١٧٢٣-١٧٢٤ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) ، ص ص١٧٢٣، ١٧٢٤، والزبيدي، محمد بن مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، د. ط (بنغازي: دار ليبيا للنشر والتوزيع، د.ت) ٧/٣٦٦-٣٦٩.

(٢) الحسيني، محمود حامد، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ١٥١٧- ١٧٩٨م، ط١ (القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت) ، ص٩٧.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٢٢هـ، السنة السابعة والعشرون
الدارة

وقد نشأت فكرة الأسبلة منذ فكَّر بعض الخيرين في إيجاد مورد تتوفر فيه المياه الصالحة للشرب، وتسبيلها على الناس سواء داخل المدن أو على الطرقات، تقربًا إلى الله وطمعًا في ثوابه[٣] .

ولم يقتصر دور السبيل في العصور الإسلامية على توفير المياه الصالحة للشرب فحسب، بل استثمرت هذه المنشأة المعمارية المهمة لتحفيظ أبناء المسلمين القرآن الكريم، وتعليم القراءة والكتابة[٤] .

ولذلك فإن السبيل يعد عنصرًا معماريًا حيويًا في المجتمع الإسلامي، وقد عُرف نوعان من الأسبلة في العصر الإسلامي، أحدهما ملحق بالمباني العامة، كما هو الحال في العصر المملوكي، أما الآخر فمستقل عنها، وقد شاع هذا النوع من الأسبلة في العصر العثماني[٥] ، وخلال هذين العصرين حظيت الأسبلة بتطوير كبير من الناحيتين المعمارية والفنية، رغبة من منشئيها في إظهارها بمظهر يعكس أهميتها ودلالاتها الاجتماعية[٦] .

ويتكون السبيل من ثلاثة طوابق، الأول في تخوم الأرض، وهو الصهريج الذي يملأ بالماء، والثاني أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل، ويمثل حجرة التسبيل، أو حانوت التسبيل، أو حوض التسبيل، بشبابيك للتسبيل. أما الطابق الثالث فاستغل للتعليم غالبًا، وأحيانًا كان يخصص للمزملاتي، وهو الشخص المسؤول عن السبيل[٧] .

(٣) الباشا، حسن محمود، مدخل إلى الآثار الإسلامية، د.ط (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م) ، ص٢٠٧، والحسيني، الأسبلة، ص١٩.

(٤) الباشا، مدخل، ص٢١٠.

(٥) الباشا، مدخل، ص٢١٠.

(٦) الريحاوي، عبدالقادر، العمارة في الحضارة الإسلامية، ط١ (جدة: مطابع جامعة الملك عبدالعزيز، إصدار مركز النشر العلمي، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م) ، ص٤٨٠.

(٧) أمين، محمد محمد، وإبراهيم، ليلى علي، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ٦٤٨- ٩٢٣هـ / ١٢٥٠- ١٥١٧م، ط١ (القاهرة: قسم النشر بالجامعة الأمريكية، ١٩٩٠م) ، ص٦٢.

أما مكة المكرمة فإن الأسبلة التي بنيت فيها أواخر العصر العثماني وبداية العصر السعودي تتكون من حوض السبيل بفتحات متعددة للتسبيل، وعادة ما تبنى ملاصقة للآبار، أو بجوارها، أو بالقرب من قنوات المياه، بحيث تصل المياه إلى السبيل من هذه الموارد المائية عن طريق قصبة فخارية، أو معدنية، أو رخامية، ومن بينها هذا السبيل الذي بني ملاصقًا للمسجد، وبجوارها تمرُّ قناة الماء.

أولاً: نبذة عن الأسبلة التي أنشأها الملك عبدالعزيز

منذ ضم الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الحجاز إلى دولته الفتية عام١٣٤٣هـ/١٩٢٤مم [٨] حرص على توفير كل أسباب الراحة لحجاج بيت الله الحرام، والمعتمرين، والزوار، والمواطنين، ومما نالته العناية اهتمامه بإنشاء منظومة من الأسبلة داخل مكة المكرمة، وعلى الطريق المؤدية إليها، ففي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م أصدر - رحمه الله - أمره الكريم بتجديد السبيل العثماني الملاصق لمبنى بئر زمزم[٩] ، كما أمر في عام ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م بإنشاء سبيلين جديدين بجواره، أحدهما مما يلي حجرة الأغوات في الجهة الجنوبية للمبنى الذي كان قائمًا فوق بئر زمزم[١٠] ، والآخر في الجهة الشرقية[١١] .

منذ ضم الملك عبدالعزيز الحجاز إلى دولته الفتية حرص على توفير كل أسباب الراحة لحجاج بيت الله الحرام

(٨) السباعي، أحمد، تأريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ٦٤٠/١ (مكة المكرمة: مطابع الصفا، مطبوعات نادي مكة الثقافية رقم ٦، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) .

(٩) باسلامة، حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٣ (جدة: تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودية رقم ١٦، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م) ، ص١٨٣، والكردي، محمد طاهر، كتاب التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ط١ (مكة المكرمة: مكتبة النهضة الحديثة، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) ، ٨٥/٣.

(١٠) باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ص١٨٣، ١٨٤، والكردي، كتاب، ٨٥/٣.

(١١) باسلامة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص ص١٨٣، ١٨٤، والكردي، كتاب، ٨٥/٢.

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٣٢هـ، السنة السابعة والعشرون

وفي عـام ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م أمـر - رحـمـه الله - بإنشـاء ثلاثة أسبلة على الطريق بين مكة المكرمة وجدة، وهي: سـبيل أم القرون، وسبيل بئر المقتلة، وسبيل حداء(١٢) ، وجدد عمارة سبيل على الطريق نفسه مما يلي مكة المكرمة(١٣) .

وقد أدت منظومة الأسبلة سواء التي أمر بإنشائها، أو التي أمر بتجديدها دورًا مهمًا في إرواء الحجاج، والمعتمرين، والزوار، والمواطنين، وتوفير المياه الصالحة للشرب لهم، وبخاصة أن مناخ مكة المكرمة يتسم بالحرارة الشديدة.

ثانيًا: موقع السبيل (شكل رقم ١، اللوحات أرقام ١ - ٥)

يقع هذا السبيل ملاصقًا للطرف الغربي من الجدار الشمالي للمسجد الذي صُلِّي فيه على أبي جعفر المنصور بأسفل جبل الخطم (نزاعة الشوى) من الناحية الشمالية (١٤) ، مقابل مبنى أمانة العاصمة المقدسة بحي المعابدة في مكة المكرمة، ويحده من الشمال والشرق والغرب شارع القصر الملكي (السقاف حاليًا) ، أما من الجنوب فيحده المسجد، وقد بني ملاصقًا للطرف الغربي من الجدار الشمالي للمسجد بأسفل المئذنة من الخارج، نظرًا لأن مدخل المسجد في الطرف الشرقي من الجدار نفسه، فضلاً عن سهولة إيصال المياه من قناة عين زبيدة إلى هذا الموضع.

(١٢) غباشي، عادل محمد نور، " أسبلة الملك عبدالعزيز على الطريق بين مكة وجدة"، الدارة، العدد الثالث، السنة التاسعة عشرة (ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، ١٤١٤هـ) ، ص ص٢٠٤ - ٢٣٢.

(١٣) غباشي، عادل محمد نور، " المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني دراسة حضارية "، رسالة دكتوراه غير منشورة بقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى (١٤٠١هـ) ، ١/٤٣٧.

(١٤) الفاكهي، أبو عبدالله محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، دراسة وتحقيق عبدالملك بن عبدالله بن دهيش، ط٢ (بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) ، ٤/٧٥-٧٦.

ثالثًا: وصف السبيل (الأشكال أرقام ٢ - ٧، اللوحتان ١ - ٢)

يتكون هذا السبيل من حوض مستطيل الشكل، يمتد من الشرق إلى الغرب بطول ١,٢٠م، وعرض ٤٠ سم، وارتفاع ٢,١٩م، واجهته الشمالية معقودة بعقدين موتورين [١٥] أحدهما بداخل الآخر، كل منهما على عمودين، يرتكزان على قاعدة واحدة، بينهما مسافة تقدر بـ ٨ سم. كما توج هذا الحوض من جهاته الثلاث، الشمالية (الرئيسة) والغربية، والشرقية بكتلة بنائية تبرز عن سمت جدار الحوض بمقدار ٤٧ سم، تبدو في الواجهة البالغ ارتفاعها ٣,٩٠م، وعرضها ٣,٥٠م، وعمقها ١,٣٠سم على شكل بوابة معقودة بعقد موتور اتساعه ١,١٥سم، وارتفاعه عن الأرض بمقدار ٢,٣٠م، تعتمد في الواجهة على عقد موتور يرتكز على عمودين، كل منهما مستطيل الشكل، مقسوم رأسيًا إلى نصفين بعمق ٢٧ سم، ارتفاعه ٢,٧٠م، وعرضه ١,٩٨م، يبرز كل عمود منهما من أعلى الزاوية السفلية المقابلة له بكوشتي [١٦] العقد بزاوية قائمة، حيث تبرز عن سمت العمود بمقدار ٢٠ سم، وقد زينت كوشتي العقد بإفريزين متدرجين، أحدهما يتكون من ٤ تدرجات، والآخر من ٣ تدرجات، يعلوهما شرافة على شكل ربع دائرة، تماسها العلوي المقوس يأخذ شكلاً

(١٥) وتر فلانا فلانا: أفزعه، وأصابه بظلم أو مكروه، ووتر الرجل ماله أو حقه: نقصه إياه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٣٥]، والوتر بفتحتين: جمع أوتار، شرعة القوس، وضلع المثلث المقابل للزاوية القاعدة، أما في المصطلح المعماري الأثري فهو العقد غير المكتمل، الذي يتكون من نصف عقد أو أكثر أو أقل، رزق، عاصم محمد، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط١ (القاهرة: دار جهاد، الناشر: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٠م)، ص٢٠٣.

(١٦) كاش الرجل امرأته أو جاريته: نكحها، وكاش كوشًا: فزع فزعًا شديدًا، والكوش: الفيشلة بفتح الفاء وسكون الياء، أو نبات عشبي بري طبي من فصيلة المركبات تستخرج منه بعض المواد التي تفتك بالحشرات، أما في المصطلح المعماري الأثري فيقصد به المساحة المثلثة التي تنحصر بين قوس العقد وبين المربع المحيط به من أعلاه، وبذلك يكون لكل عقد محاط بإطار مربع كوشتان مثلثتان على الجانبين كانتا في الغالب تزخرفان، رزق، معجم، ص٢٥٦.

متعرجًا، يتوسطها شكل شبه مستطيل ضلعه العلوي يشكل جزءًا من تماس ربع الدائرة، وتتوسط هذه المنطقة جامة دائرية نفذت بها الآية القرآنية الكريمة: ﴿**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾(١٧)، تحيط بها من الخارج أشكال فروع ووريقات نباتية، ومن أعلاها خارج تماس الدائرة شكل وريقات نباتية مجسمة، كما يحيط بالشرافة من الجانبين الأيمن والأيسر مما يلي الركنين العلويين لواجهة السبيل شكلان كأسيان مجسمان.

أما الواجهة الغربية فيبلغ ارتفاعها ٣,٠٩م، وعرضها ١,٣٠م، ترتفع أرضيته عن الشارع بمقدار ٤٥ سم، ولها فتحة ارتفاعها ٧٦ سم، وعرضها ٤٩ سم، وعمقها ٢٢ سم، تغلق بباب من الحديد بمصراع واحد ارتفاعه ٦٣ سم، وعرضها ٤٠ سم، استخدم لأغراض تنظيف الحوض مما علق به من أتربة وأوساخ وأحجار، فضلاً عن استخدامها وقت الحاجة في تعبئة الحوض بالمياه الصالحة للشرب بواسطة السقائين، وعلى يمين الواقف أمام هذه الفتحة توجد دخلة في الجدار تأخذ شكلاً مستطيلاً ارتفاعها ٨٧ سم، وعرضها ٢٠سم، وارتفاعها عن الأرض بمقدار ١,٠٦م، ويتوج هذه الواجهة من أعلاها عقد موتور، اتساعه ٦٩ سم، وارتفاعه عن الأرض بمقدار ٤٥ سم، ويبرز عن سمت جدار الحوض بمقدار ٥٩ سم، يعلو سطحه بناء مائل إلى الخلف بشكل حاد.

أما الواجهة الشرقية فتماثل الغربية من حيث أبعادها، ولكنها مصمتة تمامًا، فيما عدا فتحة في أعلى الجدار مستطيلة الشكل، رأسية الوضع، ارتفاعها ١٦ سم، وعرضها ٧ سم، يخرج من أنبوب معدني يصعد من جدار الحوض استخدم لتصريف مياه الأمطار، أما

(١٧) سورة الأنبياء، الآية ٣٩.

فتحات السقيا فتتوسط الجدار الشمالي (الرئيس) للحوض، وقد بلغ عددها أربع فتحات مستطيلة الشكل، رأسية الوضع ضلعها العلوي على هيئة عقد منكسر، ارتفاعها ٣١ سم، واتساعها ١٧ سم، وعمقها ٢٤ سم، وتبعد كل واحدة عن الأخرى بمقدار ١٣ سم، وتبرز من أسفلها بمقدار ٢٠ سم، وسمك ٧ سم، مشكلة مسطبة توضع عليها المغاريف في أثناء عملية الشرب، وترتفع هذه الفتحات عن أرضية السبيل بمقدار ١م.

وفيما يتصل بتزويد حوض السبيل فتتم من خلال أنبوب فخاري بالجدار؛ لأن قناة عين زبيدة تمر من أمام هذا السبيل.

رابعًا: النقوش الكتابية (الأشكال أرقام ٣، ٤، ٧، اللوحات أرقام ٤، ٥، ٧)

نفذ في واجهة السبيل نقشان كتابيان بخط الثلث [١٨]، بالنقش البارز على الجص، أحدهما بمنتصف الشرافة التي تتوج واجهة السبيل داخل جامة دائرية الشكل قطرها ٢٢ سم، ونصه: ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** ﴾[١٩].

(١٨) يطلق عليه أم الخطوط، وهو نوع من الخطوط التي تطورت عن خط النسخ، سمي بذلك؛ لأنه في حجم يساوي ثلث خط النسخ الكبير الذي كان يكتب به على الطومار، أي (الدرج) أو (الملف) المتخذ من البردي أو الورق، وكان يتكون من عشرين جزءًا يلصق بعضها ببعض في وضع أفقي، ثم يلف بشكل أسطواني، وكان سدس الدرج أو الملف يسمى طومارًا، وكان يكتب عليه بخط نسخي كبير عرف بخط الطومار، ومنه تولد خط الثلث الذي أطلق عليه أم الخطوط، الكردي، تاريخ الخط العربي وآدابه، ط١ (الرياض: الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، د.ت) ، ص١٠١، ومرزوق، محمد عبدالعزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، د.ط (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨م) ، ص١٧٥، ويعد خط الثلث من أصعب الخطوط وأكثرها جمالاً ؛ لأنه يمتاز بالمرونة، ومتانة التركيب، وبراعة التأليف، وحسن توزيع الحليات، البهنسي، عفيف، معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين، ط١ (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٥م) ص ص ٣٦٧ – ٣٧٦.

(١٩) آية رقم: ٣٠ من سورة الأنبياء.

أما النقش الآخر فيتوسط الواجهة نفسها ولكن بمنتصف جدار الحوض داخل منطقة مستطيلة الشكل، أفقية الوضع طولها ٧٥ سم، وعرضها ٤٥ سم، مقسومة إلى قسمين أفقيين يفصل بينهما خط مستقيم، بكل قسم سطر واحد، وذلك على النحو الآتي [٢٠]:

السطر الأول: أنشأ هذا السبيل على نفقته الخاصة حضرة صاحب الجلالة.

السطر الثاني: الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود أيده الله سنة ١٣٦٢هـ.

وقد ورد في النقش التأسيسي الذي يؤرخ لإنشاء سبيل المعابدة اسم الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود لاحقًا للقبه (صاحب الجلالة) [٢١] ، و (الملك) [٢٢] ، وهو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع

(٢٠) الحارثي، ناصر بن علي، " منطقة القصر الملكي بالمعابدة، دراسة تاريخية جغرافية أثرية "، تقرير غير منشور (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ، ص ص١٤، ١٥، والحارثي، ناصر بن علي، أعمال الملك عبدالعزيز المعمارية في عشيرة شمال الطائف دراسة تاريخية أثرية، ط١ (الطائف: المطبعة الأهلية للأوفست، إصدار لجنة المطبوعات بالتنشيط السياحي بمحافظة الطائف، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م) ، ص٢١.

(٢١) يتكون هذا اللقب من كلمتين (صاحب) معروفة، وهي من الكلمات التي يضاف إليها الكثير من الألقاب، مثل: (جلالة) من جل يجل جلالة فهو جليل، أي عظيم القدر والمكانة، الباشا، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، د.ط (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٨م) ، ص ص٣٦٧– ٣٧٦، وقد أطلق هذا اللقب على الملك عبدالعزيز الذي قام بأعمال جليلة في التاريخ، انظر: هامش رقم ٢٤ من هذا البحث، والزركلي، خير الدين، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز، ط١ (بيروت: الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م) ، ص ص٣٦٧– ٣٧٦.

(٢٢) عرف هذا اللقب في اللغات السامية، وورد في القرآن الكريم، ويطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية، وبدأ التلقب به منذ القرن الرابع الهجري، الباشا، الألقاب، ص ص٤٩٦– ٥٠٦.

بن ربيعة المريدي، وينتهي نسبه إلى بكر بن وائل من أسد بن ربيعة، ولد في الرياض عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م، وبويع بالإمامة عام ١٣٢٠هـ بعد تنازل والده، وشرع في توحيد معظم أرجاء الجزيرة العربية، ومن ضمنها الحجاز التي ضمها إلى دولته الفتية عام ١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م، ثم في عام ١٣٥١هـ / ١٩٣٤م، وحد معظم أرجاء الجزيرة العربية التي خضعت لسلطانه في دولة واحدة باسم: (المملكة العربية السعودية) [٢٣]، وقام - رحمه الله - بإنجازات جليلة في التاريخ في شتى المجالات [٢٤]، وتوفي عام ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م بمدينة الطائف عن عمر ناهز الثمانين عامًا [٢٥].

أما تنفيذ النقوش الكتابية فقد لُحِظ استخدام الخطاط أسلوب الثلث المركب الذي تتداخل فيه الكلمات، وتتراكب فوق بعضها، وهو أسلوب لا يقدم عليه إلا فنان متمرس.

كما تبدو في حروف النصوص الكتابية، سواء الآية القرآنية، أو النقش التأسيسي مدى ما يتمتع به الخطاط من مهارة عالية في فن الخط، من حيث مراعاته للنسب والموازين الخاصة بخط الثلث، وكذلك المسافات بين الأسطر والكلمات.

---

(٢٣) مؤسسة أعمال الموسوعة، الموسوعة العربية العالمية، ط٢ (الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م)، ١٦/٩٤-٩٧.

(٢٤) عن هذه الأعمال انظر: باسلامة، تاريخ عمارة، ص ص١٨٣ - ٣٠٦، وأيضًا تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، ط٢ (جدة: تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي، رقم ٤٧، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م)، ص ص ١٦٠، ٣٨٣، والكردي، كتاب، ص ص١- ٦، والحسيني، الشريف محمد بن مساعد، درر الجامع الثمين لأعمال الملوك من آل سعود الميامين في مسجد البلد الأمين ١٣٤٣- ١٤١٨هـ، ط١ (جدة: مطابع السروات: نشر مكتبة النهضة الحديثة، د.ت)، ص ص١٤- ٢٩، والحارثي، أعمال، ص ص١٨-٧٧، وغباشي، أسبلة، ص ص٢٠٤- ٢٣٢.

(٢٥) العثيمين، عبدالله الصالح، تاريخ المملكة العربية السعودية، ط٢ (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م)، ٢/١٨١-٢٠٢.

وقد تم تنفيذ النص بصورة جمالية رائعة من حيث تنسيق كلماته، مما أكسبه مظهرًا جماليًا أخّاذًا.

كما كان لاستخدام اللون الأخضر للأرضية، والأبيض لتحديد كل من المناطق، وللنص الكتابي أكبر الأثر في إبراز النصوص الكتابية، إذ تشاهد من مسافة واضحة.

أما أشكال الحروف فلم تخرج عن مثيلاتها في خط الثلث كما يتضح من الجدول التالي:

جدول بأشكال الحروف في النقش التأسيسي الذي يؤرخ لسبيل الملك عبدالعزيز بالمعابدة في مكة المكرمة عام ١٣٦٢هـ

الحروف	مفرداً	ملتصقاً		
		مبتدئ	وسط	منتهي
أ				
ب ت ث				
ج ح خ				
د ذ				
ر ز				
س ش				
ص ض				
ط ظ				
ع غ				
ف				
ق				
ك				
ل				
م				
ن				
هـ				
و				
ي				
لا				
الله				

ومن خلال نوع الخط، وأسلوب تنفيذه، وصيغة النص، والفترة التاريخية، ومقارنته بالنقش التأسيسي الذي يؤرخ لتجديد عمارة المسجد الذي بني السبيل ملاصقًا له نستطيع القول: إن الخطاط الذي قام بتنفيذ النقش التأسيسي الذي يؤرخ لإنشاء السبيل هو: محمد عمر بن بكر رفيع [٢٦] .

خامسًا: الزخارف

زينت الشرافة التي تتوج واجهة السبيل من أعلاه بأربعة عناصر زخرفية، الأول نفذ على شكل كأسي مغطى بقاعدة مربعة وبدن كروي مضلع، وفوهة دائرية، عليها غطاء مخروطي الشكل رأسه كروي الشكل، وذلك على الركنين الأماميين الشمالي الغربي والشمالي الشرقي من واجهة السبيل، وهذا النوع من الزخارف المجسمة شاع استخدامه في العمارة التقليدية بمكة المكرمة منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري [٢٧] .

والنوع الثاني من الزخارف يمكن تسميته زخرفة خلايا النحل، إذ يتكون من صفوف من أنصاف الدوائر، صف فوق آخر مكونة في مجموعها ما يشبه خلية النحل، وقد شاع استخدام هذا النوع من

(٢٦) ولد بمكة المكرمة عام ١٣٤٠هـ / ١٠٢٠م، كان أبوه شيخ السبحية بمكة المكرمة، مكي المولد والنشأة والوفاة، اشتغل في بداية حياته بالخط، وكان خطاطًا متقنًا، ثم عمل رئيسًا لمكتب أوقاف آل غالب بمكة المكرمة، ثم عين مديرًا لمدرسة رجال ألمع بتهامة عسير، ثم نقل إلى البعثة التعليمية السعودية بمصر، ثم تقاعد، وعمل في رابطة العالم الإسلامي، من مؤلفاته: في ربوع عسير، ومكة في القرن الرابع عشر الهجري، البلادي، عاتق بن غيث، نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين تراجم مؤرخي مكة وجغرافيتها على مر العصور، ط١ (مكة المكرمة: دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) ، ٢/٥٨٣.

(27) Sami Mohsin Anqawi, Makkah Architecture, Thesis Sub Mitted For The Degree of PH. D , School of Oriental And African Studies Universtiy of London (1988) ., 390-412 .

الزخرفة في المباني بمدينة الطائف منذ أوائل القرن الرابع عشر الهجري [٢٨] .

أما النوع الثالث فتمثله الفروع النباتية التي تنطلق من تحت الجامعة الدائرية، وهي عبارة عن فرعين تحت الجامعة الدائرية، يتجهان إلى أعلى باتجاه الركن العلوي المقابل له بشكل شبه المستطيل الذي تتوسطه الجامعة، حيث تتخلل كل من هذين الفرعين وريقات نباتية مقوسة ومشرشرة ومعنقدة.

أما النوع الأخير من الزخرفة المنفذ بالشرافة التي تتوج واجهة السبيل فنفذ بشكل مجسم بأعلى منتصف الجانب العلوي من الشكل شبه المستطيل الذي نفذت بمنتصفه الجامعة، وقوام زخرفته ورقة نباتية مفلطحة، ينطلق من تحتها إلى الجانبين الأيمن والأيسر فرع نباتي، ينتهي بورقة نباتية كبيرة منحنية إلى أسفل.

وقد لُحِظ قيام المعمار بعمل حزوز غائرة في الفروع والأوراق النباتية المنفذة في هذا السبيل، كما رسمت هذه الفروع والأوراق وفق الأسلوب الأوربي الوافد في الزخرفة بشقيه (الباروك) ، (والروكوكو) اللذين دخلا الحجاز منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري [٢٩] .

(٢٨) الحارثي، ناصر بن علي، موسوعة الآثار الإسلامية في محافظة الطائف، ط٢ (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، ١٤١٨هـ) ، ٦٥/١.

(٢٩) الحارثي، ناصر بن علي، (محمد أفضل هروي وأعماله الفنية بمكة المكرمة في أواخر العصر العثماني) العصور، المجلد السادس، الجزء الثاني (يوليو ١٩٩١م / ذو الحجة ١٤٤١هـ) ، ص٢٣٢، والباروك (Barork) لفظة أسبانية الأصل من الكلمة (Barruco) التي تعني اللؤلؤة المشوهة غير المنتظمة في استدارتها، ثم تغير مدلولها منذ القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ، فأصبحت تطلق على طراز فني جديد ظهر في أوربا، عناصره الزخرفية تبدو مشوهة إذا ما قورنت بالعناصر الزخرفية التي كانت شائعة في أوربا آنذاك، حيث عزف الفنانون عن استعمال الخطوط المستقيمة، وأقبلوا على الخطوط المتعرجة، والسطوح المائلة، والأقواس المختلفة، واعتمدوا على المبالغة والتكلف، وإبراز الانفعالات، ظهر هذا الأسلوب في إيطاليا منذ القرن العاشر الهجري=

ومن الملحوظات الجديرة بالاهتمام استخدام المعمار لعناصر زخرفية ذات دلالات لها علاقة بوظيفة السبيل، مثل: الشكل الكأسي الذي يرمز إلى كأس الشرب، وخلايا النحل التي ترمز إلى العسل وعذوبة الماء، والأوراق النباتية التي تمثل الجنان.

سادساً: المواد الخام

استخدم المعمار الذي بنى هذا السبيل مواد خام عديدة، متوفرة بكثرة في البيئة المحلية، وهي: الحجر، والآجر [٣٠]، والجص [٣١]،

= (السادس عشر الميلادي)، أما الروكوكو (Rococo) فمشتق من الكلمة (Rocaille)، التي تعني الصدفة غير المنتظمة الشكل ذات الخطوط، ويختلف الروكوكو عن الباروك بأنه أكثر رقة ورشاقة، وقد بدأت بوادره في الظهور منذ القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) في فرنسا، وقد انتشر هذان الأسلوبان الزخرفيان في أوربا، وتأثرت به روسيا وآسيا الصغرى، ثم انتقل إلى الولايات العثمانية، ومن ضمنها الحجاز.

Architecture Bazin Germain Barogue and Rococo Thamed an Had son, London (1976) , pp 6-10 .

وأيضًا: علام، نعمت إسماعيل، فنون الغرب في العصور الوسطى والنهضة والباروك، ط٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢م)، ص١٤٧، ١٥٦، ١٩٩.

(٣٠) جمع آجرة، ويعرف أيضًا باسم: (طوب أحمر)، أو (طوب محروق)، أو (طوب مشوي)، أو قرميد، أو (طوب)، غالب، عبدالرحيم، موسوعة العمارة الإسلامية (عربي - فرنسي - إنجليزي)، ط١ (بيروت: جروس برس، ١٤٠٨هـ/١٩٩٨م)، ص٢٧، وصدقي، محمد كمال، معجم المصطلحات الأثرية (إنجليزي عربي)، ط١ (الرياض: مطابع جامعة الملك سعود، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص٦٨، كما يعرف باللهجة العامية عند أهل مكة باسم: (آجور)، الحارثي، ناصر بن علي، موسوعة الآثار الإسلامية بمكة المكرمة - أعمال الآجر، ط١ (الطائف: دار الحارثي للطباعة والنشر، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي رقم ١٠٦، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م)، ص١١.

(٣١) يسمى أيضًا القصة، والجبس، والجفصين، مادة بنائية استعمل حجارة بعد تعريضه للحرارة في أفران خاصة تسمى جصاصات، ويذاب مسحوقًا في الماء، وتغطى به الأبنية، ومن أخلاطه الصمغ والكلس ومساحيق الرخام، غالب، موسوعة، ص١٢٠، كما يدخل في صناعته قشر البيض، وقشر الرمان.

والنورة (٣٢) ، والملاط (٣٣) ، والحديد، والفخار، فقد استخدم الحجر والآجر في البناء، والملاد (المونة) في تغطية جدران السبيل من الداخل والخارج، وكذلك في تبليط أرضيته، والجص في عمل الشرافة، والشكلين الكأسيين اللذين يحفان بها، وكذلك في عمل النقوش الكتابية بأسلوب الصب في القالب (٣٤) ، والفخار في عمل تشكيلة خلية النحل، والنورة في طلي الجدران من الخارج، أما الحديد فاستخدم في عمل الباب الذي يدخل منه لتنظيف حوض السبيل مما علق به من أتربة، وأحجار، وأوساخ ونحوها، وفي عمل المسامير التي ثبتت بها اللوحة التأسيسية، وكذلك في قصبات توزيع الماء.

سابعاً: الطراز المعماري

يأخذ هذا السبيل شكلاً مغايرًا للأسبلة التي أمر بإنشائها الملك عبدالعزيز وطرازه المعماري يعد أحد أربعة طرز رئيسة تميزت بها

(٣٢) تصنع هذه المادة من الحجر الجيري الذي يحرق ويعمل منه الكلس، وتطلى بها المباني من الداخل والخارج بإضافة نسبة من التراب، وهي من المواد الخام المناسبة لعمل البرك والأحواض والطباطيب، غباشي، عادل محمد نور، " مصانع النورة بمكة المكرمة طرازها المعماري ونتاجها الصناعي حتى نهاية العصر العثماني " الدارة، العدد الأول، السنة الثالثة والعشرون (المحرم ١٤١٨هـ) ، ص ص ٥٦، ٥٧.

(٣٣) خليط من جير ورمل وحجارة صغيرة أحيانًا، يستعمل لتطيين الحجارة، أو طلي الجدران، وقد ينقش ويعالج كالجص، أمين وإبراهيم، المصطلحات، ص١١٨، وغالب، موسوعة، ص٤٠٥.

(٣٤) تتم هذه الطريقة بصنع نماذج يماثل تجويفها الكتابات والزخارف المراد تنفيذها بأسلوبين، أحدهما بصب المادة الجصية وهي طرية، والآخر بالضغط بالقالب الخشبي على المنطقة الجصية المراد الزخرفة فيها، وهي لينة، وقد اشتهرت سامراء بهذه الطريقة حتى عدت أعمالها الجصية بداية لظهور الفن الزخرفي الإسلامي الخالص، شافعي، فريد، " زخارف وطرز سامرا "، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ، المجلد الثالث عشر، الجزء الثاني (ديسمبر ١٩٥١م) ، ص ص٩٤-١٠٣، وقد نفذت اللوحة التأسيسية التي تؤرخ لإنشاء هذا السبيل وفق الأسلوب الأول ؛ لأن اللوحة الجصية غير ثابتة، بل معلقة، إذ يمكن نزعها وإعادة تثبيتها في موضعها بكل يسر وسهولة على النحو الذي شرحناه بالتفصيل في هذه الدراسة.

الأسبلة في عهد الملك عبدالعزيز، الطراز الأول يمثله السبيلان اللذان بنيا بجوار المبنى الذي كان قائمًا فوق بئر زمزم، وكذلك السبيل الذي جدده بجواره عام ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، حيث يأخذ كل منهما شكلاً موحدًا تبدو فيه التأثيرات المعمارية الهندية، إذ تتوج كل سبيل منهما من أعلى شرافة بارزة عن سمت جدار مبنى بئر زمزم زينت من أعلاها بالأشكال الكأسية المجسمة، أما واجهتها فزينت بأشكال زخرفية ونقوش تأسيسية، وبأسفل واجهته توجد فتحات السقيا.

أما الطراز الثاني فيمثله السبيل الذي أنشئ ملاصقًا لبئر زمزم أيضًا، الذي تم بناؤه عام ١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م، حيث يأخذ شكلاً مستطيلاً يبرز عن سمت جدار السقيا مبنى بئر زمزم مسقوف بسقف جمالوني، وبأسفل واجهته فتحات السقيا.

والطراز الثالث تمثله الأسبلة الثلاثة على الطريق القديم بين مكة وجدة التي أنشئت عام ١٣٦١ / ١٩٤٢م، وكذلك السبيل الذي تم تجديده عام ١٣٦١هـ، والذي يقع على الطريق نفسه مما يلي مكة المكرمة، حيث يتكون سبيل منها من حوض مستطيل مسقوف بقبو برميلي في بعضها، وبسقف مسطح في أسبلة أخرى، ويتوج واجهة كل سبيل شرافة هرمية الشكل تقريبًا، نفذ بها النقش التأسيسي الذي يؤرخ لعمارة كل سبيل، أما فتحات السقيا فلا يقتصر وجودها على الواجهة الرئيسة، بل في الواجهتين اليمنى واليسرى في بعض هذه الأسبلة.

أما الطراز الرابع فيمثله هذا السبيل الذي أنشئ عام ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م، وقد أسهم عاملان رئيسان في ظهور هذا الطراز، أحدهما الخبرة التي اكتسبت في بناء الأسبلة إذ إن هذا السبيل آخرها، والعامل الآخر موقع السبيل، إذ بني في منطقة القصر الملكي، حيث

أضفى عليه المعمار طابعًا معماريًا مميزًا وفخمًا، فقد قام المعمار بتتويج حوض السبيل من جهاته الثلاث ببناء معقود من جهاته الثلاث بعقود موتورة، كما قام بتتويج واجهة الحوض بعقد موتور أيضًا، أما الشرافة فلم يجعلها المعمار هرمية الشكل، كما هو الحال في الأسبلة الأخرى، بل اقتصر على عمل شرافة أقل هرمية منها، وزينها بأشكال زخرفية متنوعة على عكس الأسبلة الأولى، كما قام المعمار بتجميل الركنين الأماميين للسبيل من أعلى بشكلين كأسيين مجسمين، وهو ما لم نشاهده في الأسبلة الأخرى.

أما النقش التأسيسي فقد احتفظ المعمار في هذا السبيل بالجامة الدائرية على غرار الأسبلة الأخرى، ولكنه لم ينفذ فيها البسملة مثلما هو الحال في الأسبلة الأخرى، بل نفذ فيها آية: ﴿**لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ**﴾(٣٥)، كما لم ينفذ النقش التأسيسي في الشرافة، مثلما هو الحال في الأسبلة الأخرى، بل نفذه بأعلى واجهة حوض السبيل، ولم يجعله ثابتًا كما هو الحال في الأسبلة الأخرى، بل عمله من جص مصبوب في القالب على شكل لوحة، ترتكز من أسفل على مسمارين، وتعلق من أعلاها بشكل مائل على غرار اللوحات الجدارية.

كما لُحظ الثراء الزخرفي في هذا السبيل على عكس الأسبلة الأخرى، ولُحِظ أيضًا اقتصار المعمار في فتحات السقيا على واجهة واحدة (الرئيسة)، أما الأسبلة الأخرى وبخاصة التي بنيت على طريق مكة جدة القديم فنجد فيها فتحات السقيا في أكثر من جهة، كما أن فتحة الحوض التي تستخدم لتنظيفه مما علق به من الأتربة والأحجار والأوساخ عملت في الجدار الغربي، أما عقود فتحات السقيا فكانت منكسرة، وليست موتورة، كما هو الحال في الأسبلة الأخرى.

(٣٥) آية رقم: (٣٩) من سورة الأنبياء.

الخاتمة:

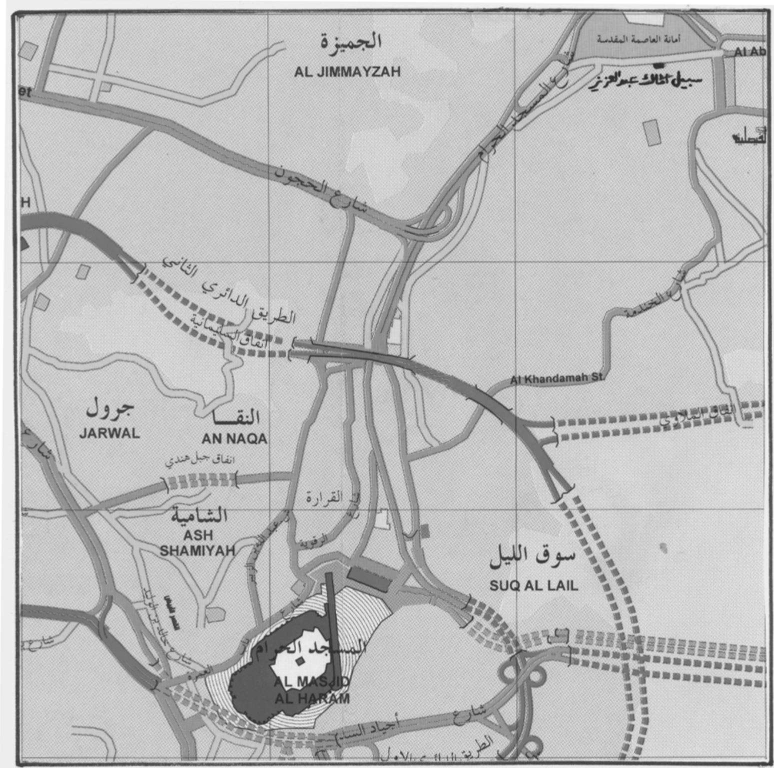
كشفت هذه الدراسة لأول مرة عن إحدى المنجزات المهمة التي نهض بها الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في مكة المكرمة، لإرواء الحجاج، والمعتمرين، والزوار، والمواطنين، وبينت الدراسة أن هذا السبيل يمثل طرازًا مستقلاً بذاته، وقد أسهم عاملان رئيسان في ظهور هذا الطراز الذي جعلته طرازًا رائعًا، هما: الخبرة التي اكتسبت في بناء الأسبلة في عهد الملك عبدالعزيز، ومجاورة السبيل للقصر الملكي.

كما أوضحت هذه الدراسة اختلاف الأساليب البنائية والزخرفية في هذا السبيل عن مثيلاتها في الأسبلة التي أنشأها الملك عبدالعزيز قبل هذا التاريخ، سواء في توزيع فتحات السقيا، أو في طريقة توزيع النقش التأسيسي ومضمونه، أو في التصميم العام للسبيل.

أما المواد الخام التي بني السبيل بها فتتمثل في الأحجار، والآجر، والجص، والملاط، والنورة، وهي مواد تتوفر في البيئة المحلية.

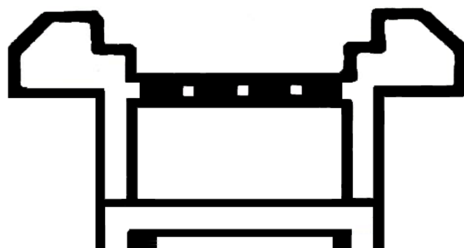
وقد رجحت الدراسة أن الخطاط الذي قام بتنفيذ النقوش الكتابية في هذا السبيل هو الخطاط محمد عمر بكر رفيع، لمطابقة الكتابات مع كتابات المسجد الذي بني بجوار السبيل في التاريخ نفسه، سواء في صيغها، أو أشكال حروفها، أو طريقة توزيعها.

الأشكال

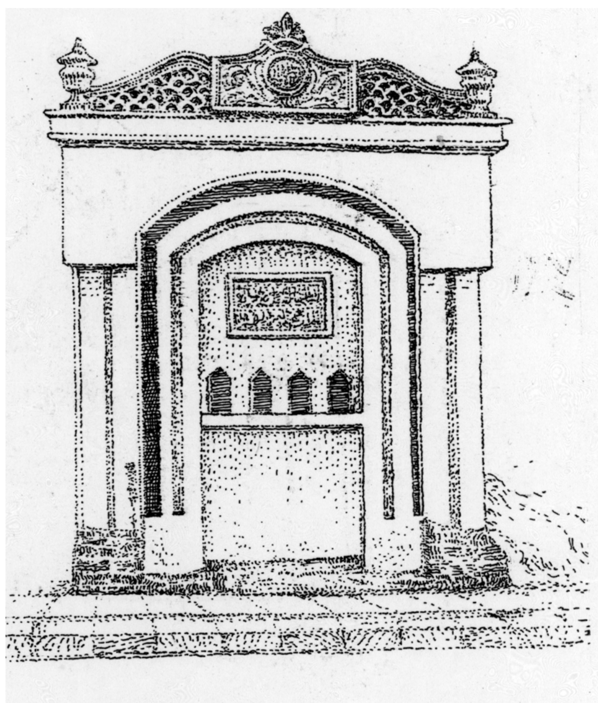


شكل رقم (١)

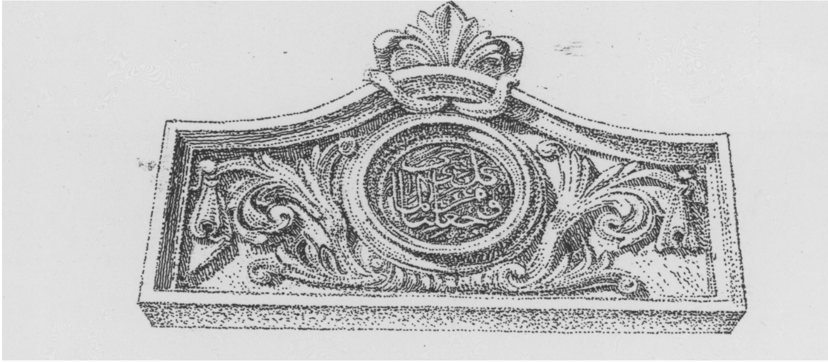
خريطة وقع عليها الباحث السبيل، نقلاً عن: الفارسي، خريطة مكة المكرمة



شكل رقم (٢)
مسقط أفقي للسبيل



شكل رقم (٣)
قطاع رأسي لواجهة السبيل



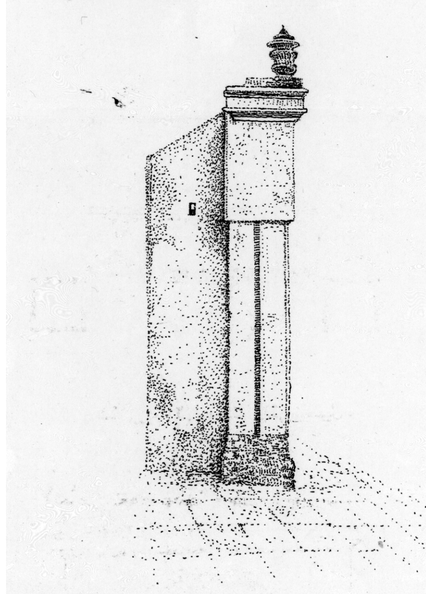
شكل رقم (٤)

تفريغ الزخرفة التي تتوسط أعلى واجهة السبيل

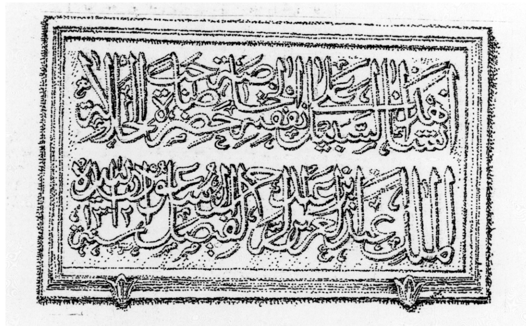


شكل رقم (٥)

قطاع رأسي للجدار الغربي



شكل رقم (٦)
قطاع رأسي للجدار الشرقي



شكل رقم (٧)
تفريغ اللوحة التأسيسية التي تؤرخ لإنشاء السبيل عام ١٣٦٢هـ

اللوحات



لوحة رقم (١)

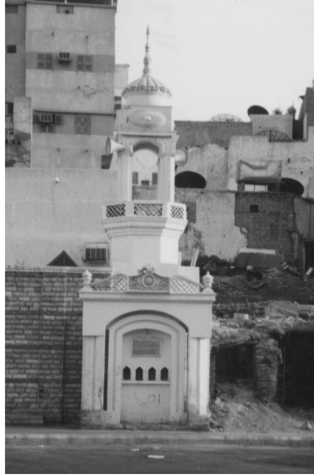
منظر عام لشارع القصر الملكي

(السقاف)، ويشاهد السبيل في الصورة بأسفل مئذنة المسجد



لوحة رقم (٢)

منظر عام للسبيل بالطرف الغربي من الجدار الشمالي للمسجد



لوحة رقم (٣)

منظر عام للسبيل بأسفل مئذنة المسجد



لوحة رقم (٤)

منظر عام لواجهة السبيل (الشمالية)



لوحة رقم (٥)

منظر عام

للوحة التأسيسية التي تؤرخ لإنشاء السبيل عام ١٣٦٢هـ



لوحة رقم (٦)

منظر تفصيلي للمنطقة العلوية من واجهة السبيل



لوحة رقم (٧)

منظر تفصيلي للزخرفة التي تتوسط أعلى واجهة السبيل



لوحة رقم (٨)

منظر عام لفتحة السقيا لواجهة السبيل



لوحة رقم (٩)

منظر عام للجدار الغربي للسبيل



لوحة رقم (١٠)

منظر تفصيلي للجدار الغربي للسبيل



لوحة رقم (١١)

منظر تفصيلي للفتحة الواقعة بمنتصف الجدار الغربي



لوحة رقم (١٢)

منظر عام للجدار الشرقي للسبيل